

الصراع السياسي بين الدولة الفاطمية في بلاد المغرب والدولة الأموية في الأندلس _ أسرة ابن حمدون الأندلسية أنموذجا _

Political conflict between the Fatimid state in the Maghreb and the Umayyad state in Andalusia/The family of Ibn Hamdoun Andalusia model.

د.سعداني محمد*

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1. أحمد بن بلة، الجزائر

تاريخ الارسال: 2019/07/04 تاريخ القبول: 2019/07/14 تاريخ النشر: 2020/02/16

ملخص بالعربية:

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف بعض مظاهر الصراع السياسي بين الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب والخلافة الأموية في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وذلك من خلال تتبع تلك القطيعة السياسية التي حدثت بين الدولة الفاطمية وبين أسرة بني حمدون الأندلسية، والتي كان لها دور بارز في نشر دعوة الفاطميين ببلاد المغرب و في تأسيس دولتهم، وتثبيت أركانها، والدفاع عنها، بحيث تحول ولاء هذه الأسرة من خدمة الفاطميين إلى خدمة أعدائهم الأمويين بالأندلس، وللأهمية السياسية والاجتماعية لهذه القطيعة التي أحدثتها أسرة بني حمدون، فإن هذه الدراسة ستعرض إلى تشرح أسبابها القريبة والبعيدة وملابساتها وأثارها العميقة على مسار الأحداث السياسية والحياة الاجتماعية ببلاد المغرب و الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

الكلمات الدالة: الخلافة الفاطمية، الخلافة الاموية، القطيعة السياسية، بني حمدون، الأندلس

Abstract (English):

This study seeks to explore some aspects of the political conflict between the Fatimid Caliphate in the Maghreb and the Umayyad Caliphate in Andalusia during the fourth century AH / 10th AD, by following the political rupture that took place between the Fatimid state and the Andalusian family of Bani Hamdoun, It is important to spread the call of the Fatimids in the Maghreb, to establish their state, to consolidate and defend it, so that the loyalty of this family is transformed from the service of the Fatimids to the service of their Umayyad enemies in Andalusia and to the political and social importance of this separation caused by the family of Bani Hamdoun, Its causes will come to dissect the proximal and distal deep and its circumstances and its effects on political events and social life in the Maghreb and Al-Andalus during the course of the fourth century AH / tenth century.

Keywords: the Fatimid Caliphate, Umayyad Caliphate, the political rupture, Bani Hamdoun, Al-Andalus

_ مقدمة:

عرفت الدولة الفاطمية في صراعها مع الدولة الأموية بالأندلس خروج بعض القوي السياسية الموالية لها عن خدمتها إلى موالة أعدائها الأمويين، ولكن هذا التغيير في الولاء لم يكن حدثا كبيرا

* الباحث المرسل. andalus479@gmail.com

ومفصلها كالذي أحدثته أسرة بني حمدون* ، وذلك بانفصال جعفر بن علي بن حمدون عامل مدينة مسيلة وإقليم الزاب عن الفاطميين، ورحيله إلى الأندلس لخدمة الأمويين.

ولعل أهمية هذه القطيعة من أسرة بني حمدون في الصراع السياسي بين الخلافة الفاطمية والخلافة الأموية يرجع إلى جملة أمور، منها أن هذه الأسرة تعتبر من أعرق الأسر وأقواها خدمة وإخلاصا والتصاقا بالفاطميين مذهبيا وسياسيا في مرحلة الدعوة أو في تأسيس الدولة وبناءها، وكانت لهم سندا قويا وحليفا استراتيجيا في مواجهة الخطر الأموي الزناتي. بعكس الولاءات التي كانت تظهر من بعض الشخصيات الزناتية المكناسية أو اليفرنية، والتي كانت ظرفية ومصالحية.

والأمر الثاني فإن هذه القطيعة ترتب عنها تصفية زيري بن مناد الصنهاجي، أحد أقوى المدافعين على النفوذ الفاطمي، والمهددين للتواجد الزناتي الأموي بالمغرب. وأما الأمر الثالث، فإن هذه القطيعة وقعت في مرحلة صعبة وحرجة، وهي تجهز الخليفة الفاطمي المعز للرحيل عن المغرب إلى مصر، وبحته عن الكيفية التي يحافظ فيها عن نفوذ وسلطة دولته في المغرب، بعد رحيله، وتخوفه من الزحف الزناتي الأموي على ما تمتلكه الدولة الفاطمية من أقاليم في منطقة المغرب.

* أسرة بني حمدون ينتسب بنو حمدون إلى جذام، القبيلة العربية اليمنية القحطانية، والأندلس هي موطنهم الأول قبل الهجرة إلى المغرب، لهذا عُرفوا بلقب "ابن الأندلسي". وجدهم الأكبر عبد الحميد، ومن أحفاده المسى حمدون، وقد ذكرت المصادر أنه الداخل من هذه الأسرة إلى المغرب، والمعروف بابن الأندلسي، وأغلبية المؤرخين يذكرون أن لحمدون هذا ابن اسمه علي، الذي تزوج من قبيلة كنامية، ومن هذا الزواج تكونت أسرة علي بن حمدون، والمكونة من علي وزوجته وابنيهما جعفر ويحيى، واللذان سيكون لهما دور بارز في أحداث المغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجري. وعلي بن حمدون ساهم بفعالية في تأسيس الدولة الفاطمية، وواجه المخاطر من أجل إنجاح قيامها، فقد كان الأقرب إلى الداعي أبي عبد الله الشيعي، وكان إلى جانب مؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب عبيد الله الفاطمي وولده أبي القاسم، ولأجل هذا الدور الكبير الذي قام به علي بن حمدون، نجد أن الفاطميين، قد عملا على تقريبه، ورشحاه إلى أعلى المناصب، فأُسندت إليه بناء مدينة المسيلة وتعميرها ثم تنصيبه أميراً عليها تحت الوصاية الفاطمية، وقد ورث ابنه جعفر إمارة مدينة المسيلة وإقليم الزاب خلفا لوالده علي، مع بقائه تابعا للدولة الفاطمية ومواليا لها، وقد بلغت مدينة المسيلة في عهده عصرها الذهبي وصارت مركز إشعاع حضاري. يُنظر، ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي. بيروت: دار الثقافة، دون تاريخ، ص33. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس تحقيق ومراجعة ج.س.ك ولان وإليني بروفنسال. بيروت: دار الثقافة، ط2، سنة 1980، ج2، ص242. البكري أبي عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق دوسلان De Slane. القاهرة: دارالكتاب، دون تاريخ، ص59. ابن حماد، محمد بن علي أبي عبد الله، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس. القاهرة: دار الصحوة، سنة 1401هـ، ص46. ابن الأبار، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحُلَّة السَّيْرَاء، تحقيق حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف، ط2، سنة 1985، ج1، ص305. ابن خلدون، عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 2000م، ج4، ص107. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، سنة 1968، ج1، ص360.

وعليه، فإن هذه الدراسة ستحاول كشف اللثام عن بعض الإشكالات المتعلقة بهذه القطيعة الحمودونية والتي تُعتبر من تجليات صراع الولاءات السياسية بين الفاطميين بالعدوة المغربية والأمويين بالعدوة الأندلسية، ولعل الإشكال الأبرز الذي يطرح نفسه هو لماذا قرر جعفر بن علي بن حمدون وأخيه يحيى الانفصال عن أسيادهما الفاطميين وتخليهما عن إمارتهما وملكهما بمسيلة وإقليم الزاب، مفضلين الدخول في طاعة وخدمة خصومهم بالأمس، بني أمية بالأندلس. رغم أن ماضي أسرتهما ومصالحتهما تقتضي المزيد من التقرب التودد للدولة الفاطمية؟ ثم ماهي ملاسبات انفصال جعفر بن علي عن الفاطميين والتحاقه بالأمويين بالأندلس؟، وما هو السبب المباشر لهذه القطيعة مع الدولة الفاطمية؟، أيضا، ماهي الآثار المترتبة عن التحاق بني حمدون بالخلافة الأموية في الأندلس، وخروجهم عن خدمة الخلافة الفاطمية؟

أولا/أسباب القطيعة السياسية بين الخلافة الفاطمية وبني حمدون والتحاقهم بالأمويين في الأندلس:

والملاحظ أنّ السبب الأصيل لهذه القطيعة السياسية هو تلك العداوة التي كانت بين جعفر عامل مسيلة وجاره زيري بن مناد عامل أشير¹، والتي كانت نتيجة منافسة بينهما في محاولة للتقرب من الخليفة الفاطمي وتقديم خدمات أكثر قصد أن يُوسع لأحدهما في ولايته وتمنح له إمتيازات أكبر²؛ ولهذا فمن غير المستبعد أن يكون قرار المعز بضم ولاية تهرت إلى زيري بن مناد قد ساء جعفر وأثر على علاقته بالخليفة الفاطمي سلبا.وقد أشار ابن الأثير أنّه "لما كثر تقدم زيري عند المعز" زاد هذا من حنقه وغضبه فترك ولايته وانضم إلى زناته³، وأكد أيضا ابن خلكان والنويري أن العداوة والمشاجرات التي كانت بين جعفر وزيري هي التي تسببت في الصدام العسكري بينهما و تخلي جعفر عن إمارته وهروبه إلى الأندلس⁴.

¹ ابن حيان، المصدر السابق، ص35. ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزيري السيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، سنة 1415هـ/1995م، ج7، ص334. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص107. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف حمد. الدار البيضاء: دار النشر المغربية، دون تاريخ، ص308. ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. تونس: المكتبة العتيقة، ط2، سنة 1967، ص74.

² ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص107. بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هاني الأندلسي، مجلة الأصاله، السنة (4)، العدد(24) مارس أبريل، مطبعة البعث قسطينة، السنة 1975، ص50. يحيى بو عزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، سنة 1995، ص26. ابن أبي دينار، أخبار إفريقية وتونس، ص74.

³ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص334.

⁴ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص360. النويري، المصدر السابق، ص308.

ومما هياً لهذه العداوة أن تتوسع بين جعفر وزيري وتشتد ثم تتحول في النهاية إلى مواجهة عسكرية وتمرد على الدولة الفاطمية هو ما عزم عليه الخليفة المعز من الرحيل إلى مصر بعد أن تمكن من الاستيلاء عليها سنة 358هـ/969م، وبالتالي فهو مضطر أن يرشح أحد عماله ومقربيه لكي ينوبه في ولاية إفريقية والمغرب¹، وهذا الأمر زاد من شدة التنافس بين عامليه بمسيلة وأشير².

ويبدو أن هذا الأمر قد شغل الناس في ذلك، فظهرت إشاعات حول من يقع عليه الاختيار ليكون نائب الخليفة الفاطمي بالمغرب وإفريقية. ومن الذين أُشيع عنهم أنه المرشح لهذا المنصب، خادم المعز جوذر، والذي عبر عن انزعاجه من هذه الإشاعة، وراسل المعز يستفسره عن صحة هذا الأمر، ويطلب منه البقاء معه وملازمته ومرافقته إلى مصر، فرد عليه المعز بجواب طمأنه فيه وبدد مخاوفه، وأظهر له انشغاله بموضوع الشخصية التي ستخلفه في حكم إفريقية والمغرب بحيث تكون لها القدرة على ضبط الأوضاع و موثوق بها من حيث ولائها المطلق للفاطميين³.

والظاهر، أنَّ المعز كان أمامه شخصيتين قويتين مؤهلتين لخلافته على إفريقية والمغرب، وهما عامله على المسيلة جعفر بن عليّ وعامله على أشير زيري بن مناد، فاهتدى إلى تقسيم التركة الفاطمية بالمغرب بينهما نصفين، فقد ذكر النويري أن المعز لما قام ببناء دار ابن رباح المعروفة بدار الإمارة في القيروان، شاع بين الناس أنها بُنيت لجعفر بن علي، وأنه يعطى ولاية إفريقية وأن المغرب كله يعطى لزيري⁴. وقد أشار ابن خلدون أن المعز استدعى جعفر ليستخلفه على إفريقية قبل رحيله إلى القاهرة⁵. ولعل هذا الحل الوسط الذي اختاره المعز في اختياره لنائبه بإفريقية والمغرب كان يريد به ترضية ومكافأة عامليه المتنافسين في خدمة الدولة وأيضاً كسباً لولائهما بعد رحيله إلى مصر والاستعانة بهما في المحافظة على ممتلكات الفاطميين بالمغرب.

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 205. أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، الدار التونسية للنشر، سنة 1976م، ص 165.

² الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمّادي الساحلي. بيروت: دار الغرب، ط 1، سنة 1992، ج 1، ص 64. محمد اليعلاوي، بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ الأندلسي، ص 50.

³ أبو منصور العزني الجوزري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة. مصر: دار الفكر العربي، (د.ت)، ص 109. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدّشراوي. تونس: الشركة التونسية للطباعة والنشر، سنة، ص 399.

⁴ النويري، المصدر السابق، ص 308. وقد أشار ابن خلدون أن المعز أراد استخلاف جعفر على إفريقية فقط وقد استدعاه لذلك. وعند ابن الأثير أن المعز أراد أن يستخلف يوسف ولكن بن زيري على الغرب لقوته وكثرة أتباعه. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 334. وذكر ابن أبي دينار أن الإشاعة كانت تتعلق بيوسف بن زيري وليس بجعفر، وأنه شاع بين الناس أنَّ المعز أرد أن يستخلف يوسف بن زيري على بلاد إفريقية كلها فأغضب ذلك جعفر. ابن أبي دينار، المؤنس، ص 74.

⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 205.

والملاحظ، أن جعفر لم يرض بهذا الحل، فإن المعز أرسل إليه¹ ليستخلفه على إفريقية، ولكنه امتنع على المعجيء ولم يظهر قبوله لهذا الطلب². فهو يطمح أن يكون الحاكم الأوحد لإفريقية والمغرب معا³، و كان يظن أنهما ستكونا من نصيبه، لأنه ربما رأى نفسه أولى من زيري الصنهاجي بحكمهما، فهو من نسب عربي يماني، ووالده علي وأخوه محمد الأندلسي قد سخرّا كل حياتهما في تأسيس الدولة الفاطمية والدفاع عنها حتى قبل قيامها، ثم إنّه يعتبر نفسه أقرب إلى الخليفة المعز من زيري الصنهاجي، فهو أخوه من الرضاة، فلعل كل هذا جعله يصبر على أن لا يشاركه في حكم إفريقية والمغرب شخص مثل زيري الصنهاجي البربري والذي كان ظهوره بعد قيام الدولة الفاطمية بمدة . ولكن لما تأكد أن الخليفة المعز مُصر على تقسيم إفريقية والمغرب بينه وبين خصمه زيري زادت عداوته لزيري بن مناد وللفاطميين حتى انتهى به الأمر إلى الانفصال التام⁴.

وإذا كان النويري وابن خلدون ذكرا أن المعز فضل تقسيم إفريقية والمغرب بين جعفر وزيري فإن المقرئزي أورد رواية مخالفة لهما مخلصها أنّ المعز الفاطمي اختار في بداية الأمر جعفر ليستخلفه على إفريقية والمغرب معا، فاستدعاه وأسرّ له بذلك، فرد عليه قائلا: "تترك معي أحد أولادك أو أخوتك جالسا في القصر وأنا أدبر، ولا تسألني عن شيء من الأموال إن كان ما أجب به بإزاء ما أنفقه؛ وإذا أردت أمرا فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي". فما كان من المعز إلى أن رفض هذا الاقتراح رفضا شديدا، لأن معنى ذلك أن تصير ولاية إفريقية منفصلة تماما عن الفاطميين واستقلالها عنهم⁵، ولهذا كان رده على جعفر عنيفا، فقال له "يا جعفر: عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبددت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشداك"⁶، فخرج.. ثم ذكر المقرئزي أن المعز بعد هذا اللقاء استدعى يوسف بن زيري وأخبره بأنه سيتخلفه على إفريقية

¹ عند النويري: أرسل إليه خادمه فرج الصقلي. النويري، المصدر السابق، ص 308.

² النويري، المصدر السابق، ص 308. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 205. الهادي روجي 6 إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 355. وذكر ابن أبي دينار أن استدعاء المعز لجعفر للقدوم إليه كان أكثر من مرة، وأنه كرر عليه ذلك عدة مرات. ابن أبي دينار، المؤنس، ص 74.

³ النويري، المصدر السابق، ص 308. روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67.

⁴ لسان الدين ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني. الدار البيضاء: دار الكتاب، سن 1964، ص 67.

⁵ حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي، من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلادي. لبنان: العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط 1، سنة 1412 هـ/1992 م، مج 1، ج 1، ص 566.

⁶ المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، اتعاط الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط 2، سنة 1996، ج 1، ص 99.

والمغرب، ولكنه امتنع على إجابة هذا الطلب، وأكبر ذلك وقال: "يا مولانا: أنت وأباؤك الأئمة من ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفوني وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتي يا مولاي بلا سيف ولا رمح". ولم يزل به حتى أجاب وقال: "يا مولانا: بشرطة أن تولى القضاء والخراج لمن تراه وتختاره، والخير لمن تثق به، وتجعلني أنا قائما بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك" فأثلج هذا صدر المعز وأثنى عليه¹.

والظاهر أن هذه الرواية مشكوك في صحتها، لأن المقرئ هو الوحيد الذي أوردها في تاريخه، ولعل جوذر هو الأقدر على الاطلاع على مثل هذه الأسرار في الدولة الفاطمية، وخاصة في القضايا المتعلقة بمشكلة الاستخلاف على المغرب، والنزاع بين عامليه بمسيلة وأشير، ومع ذلك فلم يذكر هذه الرواية، والتي تمت في السر في توقيعاته وجواباته.

وأيضاً يلاحظ في هذه الرواية تلميع متعمد لصورة بلكين بن زيري، وتصويره على أنه الخادم المطيع الوفي للفاطمين، وبالمقابل إظهار جعفر في صورة الطامع الشره إلى السلطة والغادر، والملفت للنظر، ذلك الرد البارد للمعز أمام موقف جرأة جعفر ووقاحته، فلم يأمر مثلاً بعزله أو سجنه. ثم إن جعفر في هذه الرواية ليس هو في سيرة الأستاذ جوذر، إذ نجده فيما يتعامل مع المعز الخليفة بدبلوماسية وحكمة. وأعتقد أن هذه الرواية من وضع مؤرخي الدولة الزييرية، بقصد تشويه صورة خصمهم جعفر بن عليّ وتزيين صورة بلكين بن زيري²، ثم أننا نجد آثار هذا الوضع والاختلاق في الشخصية التي رشحها المعز لخلافته بدل جعفر هي يوسف بن زيري، والأصل أن الذي ينبغي أن يحضر هذه الجلسة مع جعفر، هو زيري بن مناد.

وهذه الرواية إن دلت على شيء إنما تدل على الجو السائد في ذلك الوقت، وكيف أن استعداد الفاطميين للرحيل من المغرب بعد فتح مصر، كان له أثره الظاهر في زيادة التنافس والعداوة بين عامل مسيلة وعامل أشير، ودافعا قويا لكل واحد منهما في أن يبذل جهده في كسب ود الفاطميين وفي نفس الوقت في إضعاف خصمه المنافس له وإقصائه وقتله إذا اقتضى الأمر.

وأغلب الظن، أن زيري استطاع أن يتفوق على جعفر في التقرب من الفاطميين ويبرهن لهم أنه هو الشخصية المناسبة لإبقاء المغرب تحت سلطته بعد رحيلهم، وضرورة إبقائه في ولايته وتقويته حتى

¹ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 99. قارن أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ص 162.

² الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، صص 400، 401. وأيضاً فإن حسين مؤنس يستبعد صحة هذه الحكاية وقد علل رده لها بأن ليس من المعقول أن الخليفة المعز يختار جعفر بن عليّ الزناتي (يرى حسين مؤنس أن جعفر ينتمي إلى زناتة) خليفته على المغرب ويترك أنصاره من كتامة وصنهاجة. وأيضاً من غير المعقول أن يوصي نائبه الزيري على المغرب بأن لا يرفع السيف عن البربر؛ لأن ذلك النائب ذاته من البربر. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج 1، ج 1، ص 567.

يقف سدا مانعا أمام الزحف الأموي الزناتي، خاصة بعدما أظهر مقدرته العسكرية في فتح مدينة فاس ومساندته للقائد جوهر في حملته العسكرية، ومحاربته للزناتيين بالمغرب ودفع خطرهم، وقد كآفاه المعز على هذا بأن منحه المناطق الواسعة الواقعة من تخوم الزاب إلى حدود تاهرت غربا يمارس فيها السلطة باسمه، وأيضا رشحه لاستخلافه على المغرب¹.

والظاهر، أن قوة زيري وتفوقه على عامل مسيلة ترجع إلى عصبيته القبلية، وكثرة أتباعه من صنهاجة². وما يمثله للفاطميين من قوة رادعة للزناتيين وخاصة بني خزر المغراويين المستقرين بالمغرب الأوسط والذين تعهدوا بنصرة الخلافة الأموية بالمغرب ومحاربة الدولة الفاطمية.

وأما جعفر بن علي ليس له انتماء قبلي يستند عليه، وبالتالي فهو ضعيف أمام قوة زيري القبلية³، وليس له تلك القوة التي يستطيع بها إيقاف الزحف الزناتي. وبالتالي شرع في وضع خطة لإزاحة منافسه وإضعافه أو تصفيته ليتحقق له ولاية إفريقية والمغرب معا بعد رحيل الفاطميين إلى مصر. فلكي يقوي نفسه من الناحية العصبية القبلية عقد تحالف قوي وصداقة متينة مع قبيلة بني برزال الزناتية⁴ ليقابل بها عصبية زيري الصنهاجية.

وأیضا لیُفشل خطة زيري المتمثلة في دحر الزناتيين وتقديم نفسه كمرشح قوي لنيابة الفاطميين بالمغرب بعد رحيلهم، أقدم على مساعدة أمير بني خزر الزناتيين محمد بن الخير بن محمد بن خزر⁵ وتقويته، فعقد معه تحالف سري، ودله على عورات زيري و تحركاته ونقاط ضعفه⁶، ولعل هذا الدعم المخبراتي من عامل المسيلة قد سهّل على أمير زناتة من شن هجمات ناجحة ومكثفة على منطقة تهرت، ممّا جعل هذا يشغل الخليفة الفاطمي ويزعجه كثيرا خاصة أنّه يُجهز نفسه للانتقال إلى مصر⁷.

¹ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 334، 333. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص 74. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 334.

² المصدر نفسه، ج 6، ص 201.

³ عبد العزيز فيحالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سنة 1982، ص 192.

⁴ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 73.

⁵ وذكر صاحب مفاخر البربر نقلا عن ابن حيان أن محمد بن الخير بن محمد بن خزر كان من أكبر ملوك زناتة وأبسطهم يدا، وأشدّهم للمراوئية إعظاما وبرّا. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط 1، سنة 2005، ص 96.

⁶ ابن حيان، المصدر السابق، ص 35. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 355.

⁷ ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 327. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 352.

وطبعا فهذا التحالف مع الزناتيين المغراويين، سيتبعه ربط العلاقة مع الأمويين بالأندلس، والذين استثمروا هذا النزاع بين عاملي الفاطميين لصالحهم، فقاموا بالاتصال مع جعفر بن عليّ وعقد صداقة معه، ربما عن طريق حلفائه الزناتيين، أو مباشرة بواسطة أعوانهم وجواسيسهم بإمارة بني حمدون¹، مثل أمين بن عثمان، والذي لقي كل الحفاوة والتكريم بإمارة جعفر²، و كاتبه الوهراني، والذي اتهمه ابن هانئ الأندلسي بميله إلى الأمويين، وكراهيته للمذهب الإسماعيلي، وربما أيضا صهره أبي القاسم الغساني السني و محمد بن مهنا البجاني الأندلسي، وقد كانا ضمن من رحلوا معه جعفر إلى الأندلس³.

ويُرجح أن الخطة التي اتبعها جعفر في إزاحة خصمه وإضعافه، ليكون هو المرشح الوحيد لخلافة المغرب والتي تمثلت في تحالفه مع خصوم الفاطميين، والانضمام إلى الحلف الأموي الزناتي سرا، تسببت في تلك الشكاوي والتحذيرات التي كانت تأتيه من خليفته المعز لدين الله. فاحتياج عامل مسيلة إلى المال الكثير لينفقه على حلفائه الزناتيين، سواء الذين في إمارته، أو الذين يسندوهم سرا، دفعه إلى الأخذ من مال الجباية، والإنقاص من مقدارها، مما أزعج الخليفة الفاطمي المعز. والشخص الأموي غير المرغوب فيه من الفاطميين، والذي كان بإمارة جعفر، سببه أيضا التحالف السري الذي عقده مع خصوم زيري من الزناتيين والأمويين.

وبسبب هذا التحالف الحمدوني الأموي الزناتي ضد زيري بن مناد، تحولت العلاقة بين جعفر وزيري من مجرد منافسة داخلية محدودة بين عاملين تابعين للدولة الفاطمية، إلى صراع إقليمي بين خلافتين كبيرتين، الخلافة الفاطمية بالمغرب، والخلافة الأموية بالأندلس.

ثانيا/ اللجوء السياسي لأسرة بني حمدون إلى الأمويين في الأندلس: الملبسات والعوامل:

ولكن ما خطط له جعفر بن علي من إضعاف زيري وتصفيته كان مآله الفشل، فوصل به الأمر إلى أن يتخلى عن إمارته، ويفر من مسيلة بأسرته وبكل ما يملك، معلنا انفصاله عن الدولة الفاطمية ولجؤه إلى مواطن زناتة ثم رحيله إلى الأندلس لخدمة الخليفة الأموي، وهذا يستدعي أن نستكشف الملبسات والدوافع المباشرة التي أحاطت بخروج جعفر بن عليّ وأسرته من إقليم الزاب

¹ الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص354. ومما شك فيه فإنّ غرس الجواسيس والعملاء وكسب ولاء الزعامات السياسية ومساندة الثائرين من الوسائل الأساسية المستخدمة في الصراع السياسي والمذهبي بين الخلافة الفاطمية بالمغرب والخلافة الأموية بالأندلس. وهذا ما نلاحظه في السياسة التي انتهجتها الدولة الأموية مع أمراء مسيلة والتي أتت أكلها في الأخير. ينظر عبد العزيز الفيلاي، العلاقات السياسية، ص127، 128. مرمول محمد الصالح، السياسية الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1983، ص313.

² أبو منصور الجوزي العززي، المصدر السابق، ص. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص354.

³ ابن حيان، المصدر السابق، ص53.

مرورا بالمغرب الأوسط والمغرب الأقصى إلى العدو الأندلسية ليكون في خدمة الخلافة الأموية ومعلنا قطيعته للفاطميين.

وعليه، فإن هناك روايتان مختلفتان في تحديد الدافع المباشر الذي ساهم في تحفيز جعفر بن عليّ على ترك إمارته بمدينة المسيلة وفراره إلى الأمويين في الأندلس، الرواية الأولى انفرد بذكرها ابن حيان نقلا عن الوراق¹، وتحصر سبب انفصال جعفر عن الفاطميين ولحقه بزنايتين في فضح التحالف السري الذي كان بينه وبين محمد بن الخير الزناتي وانكشاف خيانتة للدولة الفاطمية. ومحتوى هذه الرواية أن زيري بن مناد لما قتل² الزعيم المغراوي "محمد بن الخير³ بن محمد بن خزر أمير زناتة المناصر للأمويين بالمغرب⁴، وجد عنده فرسا أهدها الخليفة المعز لدين الله إلى جعفر، وهذا الأخير قدمها إلى أمير مغراوة هدية، وأيضا وقعت بين يديه رسائل مكتوبة بخط جعفر وجدها في بيت محمد بن الخير كان يبعثها إلى زناتة ويعلمهم بتعداد جيش زيري ومواقعه، ويدعوهم إلى محاربته وقتله، ويكشف لهم تحركاته لمهاجمتهم، فقام زيري بإرسال هذه الأدلة الدامغة التي تثبت على خيانة جعفر للفاطميين إلى خليفته المعز⁵.

فبعدما تسلم المعز هذه الأدلة، وتبين له عداوة جعفر له وتحالفه مع خصمه محمد بن خزر الزناتي "بلغ ذلك منه أشد مبلغ، وتكلم في جعفر أسوأ الكلام وتهدهد بالقتل"⁶؛ ويبدو أنّ رأيه قد

¹ وقد أشار ابن خلدون إلى هذه المwalاة التي كانت بين جعفر وبني خزر، ولكن العبارة التي تضمنت هذه الإشارة العابرة جاءت مضطربة وغير واضحة. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص37.

² ويتفق ابن الأثير وصاحب مفاخر البربر وابن عذارى وابن خلدون أن الذي هاجم محمد بن الخير وفاجئه بمحاصرته هو يوسف بلكين بن زيري، وأن محمد بن الخير لما فوجئ بهذا الهجوم قتل نفسه. ونتج عن هذه المعركة مقتلة كبيرة لزناتة، حيث قتل بضعة عشرة من أمراء زناتة، وما لم يقتل وقع في الأسر. فكان هذا نصرا كبيرا للخليفة الفاطمي المعز لدين الله وخسارة جسيمة للخليفة الأموي الحكم المستنصر. وتقوية لنفوذ زيري في المغرب وإضعافا لزناتة. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص327. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، ص96. ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص243. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص62، 63. وكان مقتل محمد بن الخير في منتصف شهر الربيع الثاني سنة 360هـ. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص96. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص327. ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص243. وقد ساعد بلكين بن زيري أحد أنصار محمد بن الخير في شن هذا الهجوم المباغت حيث أمدّه بمعلومات حول مكان أميره، وقد وقع هذا الهجوم في غربي تاهرت بالقرب من تلمسان في 15 ربيع الثاني 360هـ/فبراير 971هـ. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1، ص63. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص352.

³ عند ابن الأثير: محمد بن الحسين بن خزر الزناتي. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص327. وعند ابن خلدون: محمد بن الحسن بن خزر المغراوي. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص62.

⁴ ابن حيان، المصدر السابق، ص35. ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص243.

⁵ ابن حيان، المصدر السابق، ص35. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص403.

⁶ ابن حيان، المصدر السابق، صص35، 36.

تغير تماما في أخيه من الرضاة وصاحب المنزلة الرفيعة عنده، فبعدها كان يريد استخلافه على إفريقية¹، ها هو يبحث إليه² من يستقدمه من إمارته³ ويحمل إليه كتابا يأمره فيه " بعزله عن مسيلة، وبالقفول إليه بجميع أهله وولده وماله إلى حضرته"⁴. وقد كتب له فيه يوبخه، ويعزيه في حليفه المغراوي، ويذكره بالفرس الذي أهداه له، فوهبه إلى خصمه الزناتي ليحاربه عليه⁵. ويبدو أنّ جعفر قد وصلته الأنباء بافتضاح أمره، وتهديد الخليفة بقتله، والأمر بعزله، بواسطة رسائل جاءت من بعض عيونه عند الخليفة⁶، فغادر المسيلة حينما كان مبعوث المعز على بعد مرحلة من تلك المدينة⁷، وقد تظاهر بالمسير إلى المنصورية⁸، واصطحب معه جميع أهله وولده وعبيده وخاصته، وكل ما يمكن أخذه من مال وسلاح، وكان مرفوقا كذلك بأخيه يحيى⁹، وكان ذلك شهر جمادى الآخرة سنة 360هـ/ أفريل 371م¹⁰. ثم مال بعسكره وانضم إلى بني خزر أمراء

¹ الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 401.

² عند النويري أن المعز أرسل إلى جعفر خادمه فرح الصقلي، مرتين، المرة الأولى لكي يستخلفه على إفريقية. فأوصل له رسالة الخليفة ولكن لم يأت ولم يتمتع. والثانية، أرسله إليه دون أن يصرح النويري بالسبب في إرساله. النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، ص 308. وعند ابن خلدون أن المعز حين اعتزم الرحيل إلى القاهرة، بعث بعض مواليه إلى جعفر بمسيلة، يطلب منه المعجى إليه لتوليته على إفريقية. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 205. عند الهادي روجي إدريس: فرج الفقى. وعند الدشراوي: الخادم بدل الفقى. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 355.

³ الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 355.

⁴ ابن حيان، المقتبس، تحقيق عيد الرحمن علي الحجي، ص 36.

⁵ المصدر نفسه، ص 36.

⁶ نفسه، ص 36. وذكر ابن خلدون أن جعفر استراب مما كانت السعاية كبرت فيه. فخاف من مبعوث الخليفة المعز على نفسه، فكان هذا سببا في هروبه من مسيلة ولحقه بمغراوة الزناتيين ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 205، 204. وفي موضع آخر من تاريخه أن زيري بن مناد بعد أن فتك بزنانة وطاردهم سعى بجعفر: " إلى الخليفة وألقه له في جوانحه العداوة". فكانت هذه السعاية سببا في لجوء جعفر إلى زناتة ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 108.

⁷ النويري، المصدر السابق، ص 308. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67.

⁸ ابن حيان، المصدر السابق، ص 37. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 96. النويري، المصدر السابق، ص 308. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 355. وعند الداعي إدريس أن جعفرا هرب من مسيلة إلى فاس وبلاد زناتة. الداعي إدريس عماد الدين، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي. لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط 1، سنة 1985، ص 195.

⁹ ابن حيان، المصدر السابق، ص 36. قارن ابن عذارى، المصدر السابق، ج 2، ص 243. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 96. النويري، المصدر السابق، ص 308. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 108. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67.

¹⁰ ابن حيان، المصدر السابق، ص 36. ابن عذارى، المصدر السابق، ج 2، ص 243. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 96. الداعي إدريس، عيون الأخبار، السبع السادس، ص 195. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67.

زناتة¹، وأعلن معهم على نصرة دعوة الخليفة الأموي الحكم المستنصر، ومحاربة خصمه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله². وقد وصل مبعوث الخليفة إلى مسيلة ودخلها وعلم بانفصال جعفر بن علي³.

وهكذا، فإن جعفر كان بين خيارين، إما تسليم نفسه للمعز، وبذلك سيخسر حياته ويتعرض للإذلال والحبس والقتل، وإما أن يضحي بإمارته وولايته، وقصوره وسلطانه بمسيلة، ويفر إلى الزناتيين حلفاء الأمويين. فكان الخيار الصعب هو الإبقاء على حياته، والانضمام إلى الحلف الزناتي الأموي. وبذلك تكتمل قطيعته للفاطميين، ويصير تحالفه ضدهم علانية بعدما كان سرا.

وأما الرواية الثانية في تحديد سبب خلع جعفر لطاعة المعز ولجؤه إلى زناتة فقد ذكرها ابن حيان نقلا عن أبي جعفر بن الجزار وصاحب مفاخر البربر نقلا عن ابن حيان والنويري. وملخصها أن زيري لما تمكن من السيطرة على معظم منطقة المغرب وعلى القبائل الزناتية المستقرة فيه، تهادى في ملاحقته للزناتيين بأن دخل بجيشه إلى عمل جعفر بدون إذن منه، وقام بمطاردة وإيذاء القبائل الزناتية النازلة بنواحي مسيلة، والتي كانت في حماية جعفر ورعايته. وهذا التصرف أحقد ه على زيري وعلى الدولة الفاطمية، ودفعه إلى الانضمام إلى بني خزر الزناتيين وموالاتهم⁴.

وهذه الرواية يمكن ربطها برواية الوراق بالرجوع إلى ما أفادنا به صاحب مفاخر البربر نقلا عن ابن حيان أن التعدي الذي حصل من زيري على ولاية جعفر، كان بعد أن هاجم ابنه بلكين محمد بن الخير وما تبع ذلك من انتحاره والقضاء على عدد من أمراء زناتة الذين كانوا متواجدين معه⁵. ومن خلال ما رواه ابن حيان نقلا عن الوراق أن زيري وجد في المكان الذي قتل فيه محمد بن خير فرس المعز ورسائل من جعفر تثبت تحالفه مع بني خزر الزناتيين وغدره وخيانتهم للفاطميين⁶، وبالتالي فمنطقته صارت مستباحة، ومهاجمة حلفائه الزناتيين المستقرين بولايته صارت مشروعة، فلا فرق بينه وبين بني خزر الزناتيين من حيث التعامل معه كعدو للدولة الفاطمية. وبهذا يمكن أن نفهم جرأة زيري على التغلغل إلى عمل جعفر وإيذاء حلفائه من القبائل الزناتية المستقرة بإقليمه.

¹ ابن حيان، المصدر السابق، ص 36. ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 243. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 108، ج 6، ص 205.

² ابن حيان، المصدر السابق، ص 36. قارن مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 308. النويري، المصدر السابق، ص 308. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 108.

³ النويري، المصدر السابق، ص 308. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 67.

⁴ ابن حيان، المصدر السابق، ص 37، 36. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 96. النويري، المصدر السابق، ص 308.

⁵ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 96.

⁶ ابن حيان، المصدر السابق، ص 35.

وهكذا، رحل جعفر إلى بني خزر الزناتيين¹، فقبلوه قبولا عظيما وملكوه عليهم². ولما علم زيري بن مناد بفرار خصمه ولحوقه بالزناتيين، أراد أن يفاجئهم قبل أن يستفحل خطرهم ويقوى أمرهم³؛ ولعل الخليفة المعز هو الذي أصدر له الأمر بملاحقة جعفر بعدما علم بانقلابه عليه من مبعوثه الذي وصل إلى المسيلة متأخرا⁴. فأسرع زيري إلى الخروج بنفسه على رأس جيش قبل أن يستكمل التعبئة⁵ وينتظر "فارس كتيبته ومدير حربه ابنه ولكن والذي كان غائبا في قاصية عمله"⁶ ليتقوى به في المعركة التي سيخوضها مع جعفر والزناتيين.

ومن جهة أخرى، فإن جعفر شق الصحراء مع زناتة ورئيسها الخير بن محمد بن الخير والذي كان مصمما من الثأر لمقتل أبيه للالتقاء بزيري، فوصلوا إلى موضع بالقرب من ملوية عند مشارف المغرب الأقصى⁷. وأما زيري فزحف إليهم مبادرا المكان الذي عرف اجتماعهم فيه⁸. فالتقى الجيشان في يوم الخميس 10 من شهر رمضان سنة 360 هـ/28 جوان -جويلية 971م¹⁰، واشتد بينهما القتال، فانهت المعركة بقتل زيري بعدما سقط عن فرسه وعددا من رجاله وهزيمة نكراء للصنهاجيين¹¹. وقد كان لهذه "الوقية" من أعظم الوقائع وأبعدها صيتا¹، وثأر الزناتيون ولقتل أمراءهم وما لقوه من زيري من المطاردة والتضييق².

¹ وقد كانوا تحت قيادة الخير بن محمد بن الخير بن خزر. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1، ص67.

² ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص334. النويري، المصدر السابق، ص309. ابن أبي دينار، المؤنس، ص74.

³ ابن حيان، المصدر السابق، ص37. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص97. ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص206.

⁴ الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص730. الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص355.

⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص108.

⁶ ابن حيان، المصدر السابق، ص37.

⁷ ابن حيان، المصدر السابق، ص36. ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص243. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العمارية، العصر الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، سنة 1389هـ/1963م، ص493. وعند الداعي إدريس أن زيري سار خلف جعفر إلى بلد زناتة نحو شهرين من عملها. الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص730. وملوية يُعرفه ابن خلدون بأنه "نهر يقع في آخر المغرب الأقصى، وهو نهر عظيم، منبعه من فوهة في جبال قبلة تازي، ويصب في البحر الرومي عند غَسَّاسَة، وعليه كانت ديار مكناسة بهم في القديم" ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، صص133، 134. ويرى الهادي روجي إدريس أن المعركة وقعت حول أسوار تاهرت. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1، ص67.

⁸ ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص37.

⁹ نفسه، ص36. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص97. النويري، المصدر السابق، ص309. وابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص205. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص334. الداعي إدريس، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ص730.

¹⁰ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1، ص67.

¹¹ ابن حيان، المصدر السابق، ص37، 36. ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص243. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص334. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص97. النويري، المصدر السابق، ص309. ابن خلدون، ج4، ص108. ج6.

ثالثا/الاثار المترتبة عن قطيعة بني حمدون للفاطميين وولايتهم للخلافة الأموية في الأندلس:

وهكذا أكد جعفر بن عليّ انفصاله التام عن الفاطميين وانضمامه الأكيد إلى زناتة وبني أمية بالأندلس، وقد كان لهذا الحدث أثره العميق على أطراف عدة. فهو يُعتبر ضربة قاسية للفاطميين، فإنهم خسروا بسبب هذه القطيعة حلفيين كبيرين لهما، جعفر بن عليّ وزيري بن مناد³، فقد ذكر صاحب مفاخر البربر نقلا عن ابن حيان أنه ورد على المعز الفاطمي "النكبتان معا: فساد الأندلسي وخلعه، وهزيمة زيري وقتله، فاشتد ذلك عليه وأقلقته"⁴. خاصة أنّ كل ما خطط له منذ توليه الخلافة وما جهّزه من حملات إلى المغرب للسيطرة على الزناتيين والحد من نفوذ خصومه الأمويين يراه مهددا بالضياح⁵. بينما رأت الدولة الأموية في هذه القطيعة نصرا إستراتيجيا لها، وخاصة أنها جاءت في سياق تجهز الخليفة الفاطمي المعز للرحيل إلى مصر. لأن في ذلك دلالة واضحة على فشل المخطط الفاطمي للتوسع إلى جهة الغرب والاستيلاء على الأندلس وتمكين المذهب الإسماعيلي بها وإسقاط الخلافة الأموية.

وأما أثر هذه القطيعة على بني حمدون، فقد تجلّى في الخسارة السياسية التي منيوا بها، وتمثلت في زوال إمارتهم بمسيلة وإقليم الزاب، وما ترتب عن ذلك من ضياح طموحاتهم في حكم إفريقية والمغرب نيابة عن الفاطميين. وفي المقابل كان رحيلهم إلى الأندلس مكسبا كبيرا لخصومهم بني زيري. حيث في سنة 361هـ/ 972 عيّن الخليفة المعز بلكين بن زيري خليفته على إفريقية والمغرب معا، وأضاف إليه مسيلة والزاب وكل ما كان في ولاية جعفر بن علي⁶.

وأما أثر هذه القطيعة على زناتة وبالأخص على بني خزر المغراويين، فيبدو أن نشوتهم بالانتصار على زيري وقتله وانضمام جعفر بن عليّ إليهم لم تدم طويلا، إذ تلقوا ضربة قاسية من بلكين بن زيري، والذي ما أن علم بمقتل أبيه حتى قام بتجهيز جيش كبير وبمساعدة من الخليفة المعز ليحقق هدفين في نفس الوقت للثأر من زناتة وإعادة الهيبة والنفوذ للخلافة الفاطمية. فتحرك بهذا الجيش الكبير في أول سنة 361هـ، وشرع في مطاردة الزناتيين في كل منطقة المغرب وتقتلهم⁷ ولاحقهم إلى المغرب الأقصى واستطاع أن يصل إلى أميرهم الخير بن محمد بن الخير بن محمد الخزري ويقتله بسلجماسة⁸. وقد نتج عن هذه الحملة

ص 205. ابن عذارى، المصدر السابق، ج 2، ص 242. الداعي إدريس، المصدر السابق، السبع السادس، ص 196. ابن أبي دينار، المؤنس، ص 74. الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 355.

¹ ابن حيان، المصدر السابق، ص 36.

² ابن عذارى، المصدر السابق، ج 2، ص 243.

³ الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 353. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج 1، ج 1، ص 573.

⁴ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 97.

⁵ الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 356.

⁶ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 205. النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ص 310.

⁷ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 98، 97.

⁸ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 38، 37.

الانتقامية إضعاف التواجد الزناتي المغراوي بالمغرب الأوسط بحيث اضطر كثير من الزناتيين الهروب والتحصن بالمغرب الأقصى¹.

وقد ترتب عن هذه القطيعة أيضا دخول قبيلة بربرية زناتية بأعداد كبيرة إلى الأندلس، وهي قبيلة بني برزال المستقرة بنواحي مسيلة²، والتي لها علاقة قوية بجعفر بن علي³، فقد كان بينهما حلف سياسي⁴، ترتب عنه وقوفها بجانب جعفر في مواجهته لبني زيري ومشاركتها إياه في معركته ضد زيري. وبالتالي ستكون ملاحقة ومطاردة من بلكين بن زيري، وستنال حظها من انتقامه لمقتل أبيه. وهذا الأمر قد دفع أفرادها إلى التزوح الجماعي إلى الأندلس، والالتحاق بحليفهم جعفر بن علي، بعد أن مهد لهم الطريق لدى الخليفة الحكم المستنصر* الأموي⁵، والذي استدعاهم ليكأفهم على دورهم في التخلص من زيري بن مناد، فوجدوا عنده حسن القبول وواسع العطاء، وغض طرفه عن اعتناقهم للمذهب الخوارج النكارية، وجعلهم ضمن جنده الخاص⁶.

وقد كان لدخولهم إلى الأندلس أثره العميق في الوضع السياسي وفي التركيبة الاجتماعية الأندلسية. فقد شكلوا تجمعا سياسيا وعسكريا في البلاط الأموي كان له دوره الخطير في سير الأحداث. إذ قام الخليفة

¹ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص38.

² المصدر نفسه، ج7، ص73.

³ المصدر نفسه، ج7، ص73. لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، سنة 1956م، ص237.

⁴ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2، ص92.

* المستنصر الأموي الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله (302 - 366 هـ = 914 - 976 م): خليفة أموي أندلسي. ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه (سنة 350 هـ). كان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ، ضليعا في معرفة الأنساب، يروى له شعر. محبا للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جماعا للكتب، قيل: إن مكتبته بلغت أربع مئة ألف مجلد. قال ابن حزم: "اتصلت ولايته خمسة عشر عاما في هدو وعلو. توفي بقرطبة مفلوجا". خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1980م، ج2، ص227.

² المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ط2، سنة 1997، ج1، ص382. لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانية الإسلامية، ص41. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج4، ص185. ابن حزم الأندلسي، جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، سنة 1962م، ص100.

⁶ ابن حيان، المقتبس، صص193، 192. قارن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص73. ويُنظر أيضا، الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2، ص92. عبد العزيز فيلاي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ص211. وذكر صاحب "مفاخر البربر" نقلا عن أبي مروان عبد الملك بن موسى الوراق أن استدعاء الحكم المستنصر لبني برزال إلى الأندلس سببه ما سمعه عنهم من شدتهم شجاعتهم في الحروب، فأمر بمكثاتبتهم، وضمهم إلى جنده يخدمون في جيشه. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص135.

الأموي الحكم المستنصر بتقريههم إليه وضمهم إليه، "فاستخدمهم ونظمهم في طبقات الجند".¹ ثم صار هذا الجند البرزالي مقربا من عثمان المصحفي* بعد توليه أمور الدولة نيابة عن الحكم المستنصر بسبب مرضه.² وقد استعان محمد بن أبي عامر* بهذا الجند في التمكين لنفسه، والسيطرة على مقاليد الحكم، خاصة في المواجهة التي كانت بينه وبين القائد غالب.³ وقد استمالهم بعد قتل حليفهم جعفر بن علي، فأصبحوا له عصبه، وكان يستعملهم في الولايات النبية والأعمال الرفيعة.⁴ ولعل الدور الأبرز لهم ظهر بعد سقوط الدولة الأموية ونشوء ما يسمى بملوك الطوائف، حيث تأسست لهم إمارة بالأندلس، في مدينة قرمونة*.

¹ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص73. قارن ابن حيان، المقتبس، صص192، 193.

* جعفر المصحفي: (372- 000 هـ = 982- 000 م) جعفر بن عثمان بن نصر، أبو الحسن، الحاجب المعروف بالمصحفي: وزير، أديب، أندلسي، من كبار الكتاب، وله شعر كثير جيد. أصله من بربر بلنسية. استوزره المستنصر الأموي إلى أن مات. وولي جزيرة ميورقة في أيام الناصر. ولما ولي الحكم استوزره، وضم إليه ولاية الشرطة. وآلت الخلافة إلى هشام المؤيد ابن الحكم، فتقلد حجابته وتصرف في أمور الدولة. وقوي عليه المنصور بن أبي عامر بخدمته لصبح (أم هشام المؤيد) فاعتقله وضيق عليه، فاستعطفه جعفر بمنظومه ومنثوره، فلم يرق له، وصادره في ماله حتى لم يترك له ولا لابنائه ما يسدون به أرماقهم، ثم قتله وبعث بجسده إلى أهله. ينظر، المقرئ، نفح الطيب، ج1، صص، 420، 402، 421. ابن عذارى، البيان، ج2، صص255، 256، 254. الزركلي، الأعلام، ج2، ص125.

² ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص260.

* المنصور أبو عامر: (326- 392 هـ = 938- 1002 م) محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، أبو عامر، المعروف بالمنصور ابن أبي عامر: أمير الأندلس، في دولة المؤيد الأموي. وأحد الشجعان الدهاة. أصله من الجزيرة الخضراء. قدم قرطبة شابا، طالبا للعلم فبرع. واستخلف على قضاء كورة (ريه) ثم عهد إليه بوكالة السيدة صبح (أم هشام المؤيد) فولي النظر في أموالها وضياعها، وعظمت مكانته عندها. وولي الشرطة والسكة والموارث، وأضيف إليه القضاء بإشبيلية. ولما مات المستنصر الأموي كان (المؤيد) صغيرا، وخيف الاضطراب، فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد سكون البلاد واستقرار الملك لابنها. وقام بشؤون الدولة، وغزا، وفتح. ودامت له الإمارة 26 سنة، غزا فيها بلاد الإفرنج 56 غزاة، لم يهزم له فيها جيش. وكانت الدعوة على المنابر في أيامه للمؤيد (وهو محتجب عن الناس) والملك لابن أبي عامر. لم يضطرب عليه شئ منه أيام حياته، لحسن سياسته وعظم هيئته. ومات في إحدى غزواته بمدينة سالم، ولا يزال قبره معروفا فيها. ينظر، المقرئ، نفح الطيب ج1، صص600، 596، 399، 296. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج4، صص189، 190. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص25. وابن عذارى، البيان، ج2، صص256، 257، 258، 259. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف، ط3، سنة1955، ج1، من ص199 إلى ص203. الزركلي، الأعلام، ج2، ص226.

³ ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص263.

⁴ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص73.

* إمارة قرمونة: تقع في منحى الوادي الكبير بين إمارة قرطبة شرقا، ومملكة إشبيلية غربا، وقاعدتها مدينة قرمونة الحصينة الواقعة شمال شرقي إشبيلية. وهذه المدينة كان يحكمها منذ أيام هشام المؤيد وقبل انهيار الدولة العامرية حاكمها الحاجب أبي عبد الله بن عبد الله بن برزال المعروف بأبي عبد الله البرزالي، وقد عينه ابن أبي عامر حاكما على هذه المدينة، ثم بعد زوال الدولة الأموية تملكها وصارت تحت سلطته وذلك في سنة 404هـ/1013م، وصارت إمارته ذات أهمية، ووثاني الإمارات البربرية

_ خاتمة:

وتأسيسا على ما سبق، أفضت بنا هذه الدراسة إلى اعتبار أن قطيعة بني حمدون مع الفاطميين مرحلة فاصلة في تاريخ الصراع السياسي والتوسعي بين الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب والخلافة الأموية في الأندلس، وأيضا فإنّ هذه القطيعة تسببت في تلاشي المشروع السياسي والحضاري لأسرة بني حمدون بإقليم الزاب، وبالأخص زوال الإمارة. ومن ثمّ تغيّر دورها التاريخي الذي تجسّد أصلا في الدعوة إلى المذهب الإسماعيلي، وخدمة المشروع الفاطمي منذ أن كان دعوة إلى أن صار دولة وخلافة. وأسفر هذا عن دخولها في مرحلة تتناقض جوهريا مع ماضيها السياسي والمذهبي، وتحولها مكانيا من بلاد المغرب إلى الأندلس، كما تحوّلت سياسيا من خدمة الخلافة الفاطمية إلى موالاته الخلافة الأموية في الأندلس. والحاصل، أن سبب ميل جعفر بن عليّ إلى الأمويين، ومعاداته للفاطميين، هو المنافسة التي كانت بينه وبين زيري بن مناد، وأن تخطيط الفاطميين للرحيل إلى مصر زاد من شدتها، بحيث صار كل طرف يطمع في أن يكون هو المرشح لخلافتهم، وتحقيق حلمه في الملك والسلطان. وبسبب قوة زيري بن مناد القبلية، وقدرته على التقرب إلى الفاطميين ونيل رضاهم، دفع هذا جعفر إلى التفكير في مواجهة خصمه ومنافسه الوحيد وإضعافه، ولهذا لم يجد وسيلة لذلك إلا بالتحالف مع خصومه والذين هم في الوقت نفسه أعداء للفاطميين، فدخل في حلف مع بني خزر الزناتيين في بلاد المغرب، وعقد اتصالات مع الأمويين في الأندلس، ونتيجة افتضاح هذا التحالف اضطر جعفر بن عليّ إلى ترك المسيلة واللجوء إلى زناته، ثم الرحيل إلى الأندلس، والاستقرار بها في ظل الرعاية الأموية. ومن ثمّ، كانت هذه القطيعة ضربة قاسية للدولة الفاطمية، ومؤشر على فشل مشروعها التوسعي ببلاد المغرب، لأنّ أسرة بني حمدون المنقلبة عنهم تعتبر من أعرق الأسر ولأجلهم، ومن المؤسسين الأوائل لدولتهم. وبالمقابل كانت هذه القطيعة نصرا استراتيجيا ومهما للخلافة الأموية بالأندلس.

بعد غرناطة، توفي أبو عبد الله البرزلي سنة 434هـ بعد أن حكم ثلاثين عاما، فتولى الحكم بعده ولده العزيز الملقب بالمستظهر، وقد انتهت هذه الإمارة باستيلاء ابن عباد على قرمونة في سنة 459هـ/1067م لسان الدين ابن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 236، 237. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 135. مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 135. محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، العصر الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس. القاهرة: مكتبة الخانجي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ط2، سنة 1389هـ/1969م، ص 148، 149، 150، 151.